

التَّرفُّم

عناصر الموضوع

٣٨٦	مفهوم الترف
٣٨٧	الترف في الاستعمال القرآني
٣٨٨	الأنفاظ ذات الصلة
٣٩٠	أسباب الترف ومظاهره
٤٠٤	أخلاق المترفين وعاقبتهم

مفهوم الترف

أولاً: المعنى اللغوي:

تطلق كلمة (ترف) ومشتقاتها في اللغة العربية على عدة معانٍ، تدور كلها حول التمتع، والترفة، والرفاهية، فالترف والإتراف: النعمة. والتتعم، والترفة: الطعام الطيب^(١)، وقيل: التوسع في النعمة^(٢).

والمترف كـ(مكرم): المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه^(٣)، يقال: رجلٌ مترفٌ منعمٌ، وترفه أهله إذا نعموه بالطعام الطيب والشئ يخصص به^(٤)، وصبيٌ مترفٌ، كـ(مكرم): إذا كان منعم البدن مدلاً، ورجلٌ مترفٌ، كـ(معظم): موسّع عليه^(٥).

والمترف: الذي قد أبطرت النعمة وسعة العيش. وأترفته النعمة، أي: أطغته^(٦)، وإنما سمّي المتتعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها مترفاً؛ لأنه مطلقٌ له، لا يمنع من تنعمه، وأترف فلانٌ: أصرّ على البغي^(٧).

فمعاني الترف تدور حول: النعمة، والمتعة، والدعة، والشهوة، والسلطة، وما تستعذبه النفس، وتستريح إليه من ملاذ الحياة وشهواتها^(٨).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الترف هو: مجاوزة حد الاعتدال في التمتع وإشباع رغبات النفس^(٩). فالمترفون إذن حريصون على الزيادة في أحوالهم وعوائدهم، وساعون إلى بلوغ الغاية في حاجات النفس الحسية من المأكّل، والمشارب، والمساكن، والمراكب.

(١) انظر: المحكم، ابن سيده، ٩ / ٤٧٦.

(٢) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦ / ٤٢٥.

(٣) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦ / ٤٢٥.

(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١ / ٣٤٥.

(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢٣ / ٥٤.

(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩ / ١٧.

(٧) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢٣ / ٥٤.

(٨) انظر: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة، ص ٩.

(٩) عرف الترف بعدة تعريفات، كلها متقاربة.

انظر: الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ٩، الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة ص ٤٥.

الترف في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ت ر ف) في القرآن الكريم (٨) مرات ^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]
اسم المفعول	٥	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]

وجاء الترف في القرآن بمعناه في اللغة: التوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها ^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٣.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسراف:

الإسراف لغةً:

السين والراء والفاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعدي الحدِّ والإغفال أيضًا للشيء. تقول: في الأمر سرفٌ، أي: مجاوزة القدر^(١).

الإسراف اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي»^(٢).

وقال الطاهر ابن عاشور: «والإسراف: الإفراط والإكثار في شيء غير محمود»^(٣).

الصلة بين الإسراف والترف:

العلاقة بين الترف والإسراف علاقة وثيقة مترابطة، فالسرف هو أولُّ ظواهر الترف وأولى لبناته، والإسراف يجزّ حتمًا إلى الترف، وهو من الأخلاق التي تنهار معها أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع.

٢ التبذير:

التبذير لغةً:

بذرٌ تبذيرًا: خرّبه وفرّقه إسرافًا. وتبذير المال: تفريقه إسرافًا، وإفساده^(٤).

التبذير اصطلاحًا:

هو «صرف الشيء فيما لا ينبغي»^(٥).

وقيل: هو إنفاق المال في المعاصي أو في غير حق.

الصلة بين التبذير والترف:

إذا تفاقم الترف في تجاوزه للحدِّ فإنه يصل إلى حدِّ التبذير، وإضاعة الأموال في أمور ضارة، أو لا حاجة لها.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١١٩/٣.

(٢) التعريفات، ص ٢٤.

(٣) التحرير والتنوير، ١١٢/١١.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٦/٦٧.

(٥) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٤.

التقتير لغة:

من قتر، وفلان قتر ضاق عيشه، وضيق على عياله في النِّفقة^(١).

التقتير اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: هو «تقليل النفقة، ويقابله الإسراف، وهما مذمومان»^(٢).

الصلة بين التقتير والترف:

كما هو واضح، فإن العلاقة بينهما علاقة تضاد، فالتقتير تضيق في النفقة، والترف مجاوزة الحد في الإنفاق.

الشح اللغة:

«البخل مع حرص»^(٣). وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل»^(٤).

والشح اصطلاحًا:

هو: «حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء في التنزيل من الشح، فهذا معناه كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]»^(٥).

قال الراغب رحمه الله تعالى: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»^(٦).

وقال الجرجاني رحمه الله تعالى: «بخل الرجل من مال غيره»^(٧).

الصلة بين الشح والترف:

العلاقة بينهما أيضًا علاقة تضاد، فالشح فيه منع الإنفاق، والترف مجاوزة الحد فيه.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٧١٤/٢.

(٢) التوقيف، ١٠٥/١.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١٧٨/٣.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٤٩٥/٢.

(٥) المصدر السابق ٤٩٦/٢.

(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٦.

(٧) التعريفات ص ٤٢.

أسباب الترف ومظاهره

للترف أسباب ومظاهر يبينها القرآن الكريم سوف نتناولها فيما يأتي:

أولاً: أسباب الترف:

الترف ظاهرة اجتماعية، وآفة إنسانية خطيرة، تنشأ وتظهر لأسباب ودواعٍ كثيرة، منها:

١. بسط الدنيا ووفرة النعم.

انفتاح الدنيا على الناس، ووفرة النعم يكون غالباً من أكبر دواعي الترف وأسبابه؛ وذلك لأنه يدعو إلى الركون والمتعة والراحة، ويدفع إلى البذخ والإنفاق في غير حاجة، وواقع المجتمعات يشهد بذلك، فإنه كلما بسطت الدنيا على الناس اقتربوا من الترف والبطر.

وقد أوضح الله تعالى في كتابه هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقُدْرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ بِبَصِيرٍ﴾

[الشورى: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا

أَنزَاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٦-٧].

ومن أجل صور الطغيان وأوضاعها البطر بالنعمة والإنفاق في غير حاجة ترقاً ومباهاة وحباً للظهور.

وهذا ما خشيه النبي صلى الله عليه وسلم علينا، فقال محذراً لنا: (فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهمهم)^(١).

وقد بين الله تعالى أن التوسعة في النعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، وليس رضا عليهم ولا محبة لهم بخلاف ما يعتقدونه؛ فإنهم يعتقدون أو يظنون بأن النعم التي تأتيهم علامة على رضا الله عنهم، وليس هذا في الحقيقة، فمن عاش في حياة الترف وألهاه التمتع بالانغماس فيه والاستكثار منه عن التعبد لله تعالى وأشغلت هذه الأمور عن طاعة الله تعالى فهذا مسكين.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ شَاوِعٍ لَهُم فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

قال قتادة: «مكرٌ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح»^(٢). إن هؤلاء: «يحبسون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، ١٧٢/٧-١٧٣، رقم ٦٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، ٢٢٧٤/٤، رقم ٢٩٦٢، من حديث عمرو بن عوف.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٧.

الخلافة في الأرض، ولكنها تكمن في تقديم حب تلك الأشياء على محبوبات الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما ينتج عن ذلك من التشاغل بها والركون إليها، حتى يصير الإنسان كأنه مسترق لها لا يستطيع عمل ما يخالفها، وإن كانت في ذلك سعادته ونجاحه، وقد حذر الله تعالى في كتابه عباده من تقديم حُبهم لشهواتهم وملذاتهم على حبه وحب رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل لدينه، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فليحذر الإنسان من الترف الذي يجعل نفسه عرضة لعبودية الهوى والشهوات، ويرد الحق ويكذب به، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُ عَنْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال: ﴿وَدَرَنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ

أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْفَتْرِ﴾ [٥٥] وإنما هي الفتنة، وإنما هو الابتلاء ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قاتم ومن شر مستطير! ^(١).

ويزداد تأثير كثرة النعم ووفرتها على الإنسان، وجره إلى الترف وغاية الرفاهية حين يكون مولوداً في النعم، لم تمر به حالات بؤس، ولم يعرف شدة البلاء ومعاناة الفقر، بل جاءه المال وتوفرت لديه النعم بسهولة ويسر من دون ما كسب أو بذل جهد.

٢. حب النفس للشهوات.

«حب الله تعالى للبشر زينة الحياة الدنيا وزخرفها، فقال الله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وليست المشكلة في ذلك الحب الذي وضعه الله تعالى في القلوب، بل إنه فطري، وضروري لاستمرار الحياة والقيام بواجب ^(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٢.

وَمَهْلِكَةٌ قَلِيلًا ﴿١١﴾ [المزمل: ١١].^(١)

٣. طول الأمل ونسيان الموت.

«الانشغال بمتاع الدنيا وشهواتها ناتج عن طول الأمل، ونسيان الإنسان كونه في رحلة إلى الدار الآخرة تكتمل بنزول ملك الموت لقبض الروح، ونظرًا لخطورة تلك الغفلة عن ذلك المصير وما تنتجه من ضعف الخوف من الله تعالى وقلة الخشية له، وبالتالي عدم المحاسبة للنفس والمراقبة لعملها.

قال تعالى محذّرًا من ذلك: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيَلْبَسُوا قَسَافًا يَلْعَنُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قوله: ﴿وَيَلْبَسُوا﴾ أي: يشغلهم أمهم في الدنيا والتزبد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله^(٢)، ﴿قَسَافًا﴾ أي: عاقبة أمرهم^(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم موصيًا ابن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)^(٤).

«وذلك لأن الغريب لا تعلق له ببلد

الغربة، ولا تشاغل لديه بملذاتها وملهياتها، بل قلبه معلق بوطنه الذي يرجع إليه^(٥) والمسافر لا هم له في الاستكثار من متاع الدنيا أثناء قطعه لمنازل السفر، وإنما يكفي بتحصيل زاد السفر له ولراحلته لا غير^(٦).

٤. الاغترار بالمال والسلطان.

«قال الله تعالى عن قارون أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

أي: فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه^(٧). إنها قوله المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء. وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه. ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه^(٨).

«إنّ الجاه والمنصب قد يحمل على الظلم، والتعدي، وعدم المبالاة بحقوق الآخرين، كما هي عادة المترفين^(٩).

(١) الترف وخطره على الدعوة والدعاة، فيصل البعداني، مجلة البيان، بتصرف يسير.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، ٨/ ٨٩، رقم ٦٤١٦، من حديث عبد الله بن عمر.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٧٨ بتصرف.

(٦) المصدر السابق ٢/ ٣٨١.

(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٥.

(٨) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.

(٩) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحميد ص ٢٣٤.

﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿سبأ: ٣٤-٣٥﴾.

ولا يعني ذلك أن الترف خاص بالكفار والمكذبين، بل هو خلق عام ينطبق على كل من اتصف به، والله تعالى يذكر صفات القوم ليحذرننا من الوقوع فيها، وقد وقع كثير من المسلمين في الترف، وهذا راجع إلى ضعف الإيمان، وقلة الوازع، والانغماس في المعاصي، والاغترار ببريق الدنيا وزخارفها^(٢).

٦. التقليد.

إن الإنسان يتأثر ببيئته تأثرًا كبيرًا، فمن نشأ في بيئة مترفة لا تهتم بتربية النشء على الجلد والخشونة، ولا توجهه في كيفية التعامل مع فتنة الحياة الدنيا وزخرفها، فإنه يتأثر بذلك حتمًا إلا من رحم الله.

وقد جاء في بعض آيات الترف الإشارة إلى تأثر المترفين ببيئتهم وأسلافهم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

يقول المترفون: «وجدنا آباءنا في نعمة من الله وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك

» ومن مضار الجاه أن يستخدمه فيما يسوء الخلق، فالأمير قد يظلم المأمور بتوقيفه بحجة باهتة، أو بالاستيلاء على ماله، أو بمنعه من دخول البلاد، والموظف - وهو أمير على من تحته - قد يظلمهم... ولا يعمل تلك الأعمال إلا المترفون المنعمون بحصول الجاه لهم^(١).

٥. ضعف الإيمان.

من أبرز أسباب الترف: ضعف الإيمان أو انعدامه، وقلة الوازع الديني؛ فإن «الترف مرتبط بالبعد عن دين الله ارتباطًا وثيقًا، ولذا فإن الترف إنما ورد ذكره في السور المكية، وفي ذم القوم المعاندين للرسول الذين أبطرتهم النعمة وصدتهم عن الإذعان للحق النازل من عند الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَرُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

إن النعمة إذا لم تصادف قلبًا مؤمنًا خاشعًا فإنها تتحول في كثير من الأحيان والأحوال إلى أداة للترف والبطر والطغيان.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾

(٢) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحميد ص ٢٣٦.

(١) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ١٨.

على آثارهم»^(١).

ثانيًا: مظاهر الترف ومجالاته:

المتأمل لحقيقة الترف يجد أنّ صورته وأشكاله قد تعدّدت وتنوّعت في القرآن مما يدلّ على خطورته وأثره في سلوك العبد مسلمًا كان أم كافرًا، وهذه المظاهر حينما يتأملها المسلم في الآيات يشعر بمدى عظم ذلك الجرم، ويرى في ثنايا الآيات رحمة الله بعباده المسلمين حيث حذّره من هذه الآفات التي أهلك الأمم السابقة، فيدفعه ذلك إلى شكر نعم الله تعالى عليه، والتحدّث بها ظاهرًا والإقرار بها باطنًا، وتصريفها في مرضاته.

وللترف مظاهر كثيرة، من أبرزها ما يلي:

١. الترف في مواجهة الأنبياء.

للترف أثرٌ بالغ في الدول والمجتمعات، بل هو معول هدم لطاقتها وقدراتها؛ فهو يغري صاحبه بالإخلاد إلى الأرض والخوض في الدنيا، والتعلّق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان معالي الأمور وعدم المخاطرة بالنفس في طلب العلم والجهاد؛ ولهذا عدّ المترفون أعداءً للأنبياء والمرسلين؛ لأنهم يقفون في طريق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

المترفون وعقيدة التوحيد.

ما من رسول إلا دعا قومه إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى وإفراده بالعبودية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن خلال تتبع قصص الأنبياء في القرآن الكريم وجد أن الصفة التي تكاد تطرد في جميع مكذبيهم هي الترف الحامل على رفع لواء العتوّ والاستكبار والإباء، فالمترفون «هم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء»^(٢)، وهم الملأ الذين يتولون كبر معارضة الرسل، كما ورد في آيات كثيرة من القرآن.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٥ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ ٥٦ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِأَدْوَىٰ أَرَأَيْتَ لَوْ رَأَيْتَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢ / ١٦٧.

(١) المحرر الوجيز ٥ / ٥١.

✽ المترفون وجحد الرسالات.

واجه المترفون رسلهم أيضًا في أصل رسالتهم ونبوّتهم من الله تعالى، وأخذوا يشكّون في ذلك، ويرفضون قبول أنهم مرسلون من الله تعالى مبلّغون عنه، مما زاد من الضيق والحرج في صدور أنبياء الله، وقد بيّن القرآن هذه المواجهة في آيات كثيرة، منها:

قال تعالى: ﴿فَرَأَيْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْهَوْنَ رُسُلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُمْ أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿[المؤمنون: ٣١ - ٣٤]﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في هذين الوصفين إيماء إلى أنهما الباعث على تكذيبهم رسلهم؛ لأن تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقع المؤاخاة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف؛ إذ ألفوا أن يكونوا سادة لا تبعًا.

وجملة: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة؛ لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولاً من الله، فأتوا بالملزوم وأرادوا لازمه.

وقال تعالى: ﴿فَرَأَيْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْهَوْنَ رُسُلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُمْ أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿[المؤمنون: ٣١ - ٣٤]﴾

وحينما دعا نبي الله هود عليه السلام قومه لدعوة التوحيد أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزْنَا بِمَا نَعْبُدُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. ومثل ذلك وقع من قوم نبي الله صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَحَابًا مَّرْسَلًا مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿[الأعراف: ٧٥ - ٧٦]﴾

وقال تعالى: ﴿وَيَجِئُوكَ إِذْ جَاءَهُمْ مُنْذِرُتَهُمْ يَقُولُ الْمَلَأُ مِنَ الْقَوْمِ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (١) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِنَاهَا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿[ص: ٤ - ٦]﴾

وجملة: ﴿يَأْكُلُ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ وَمِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ في موقع التعليل والدليل للبشرية؛ لأنه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم ولا يمتاز فيما يأكله وما يشربه^(١).

ولذلك لم يتقبلوا ما دعاهم إليه رسولهم من اتقاء عذاب يوم البعث وطلبهم النجاة باتباعهم ما يأمرهم به، فقال بعضهم لبعض: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمُ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ (٣٤) أَيْدُرُّكُمْ أَتَكْفُرُونَ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَتَكْفُرُونَ﴾ (٣٥) فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال.

✽ المترفون وعقيدة البعث.

رفض المترفون الإقرار والإذعان بعقيدة البعث بعد الموت، واستهزؤوا برسولهم فيما قال، وواجهوا هذه العقيدة بالسخرية، فقالوا: ﴿أَيْدُرُّكُمْ أَتَكْفُرُونَ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَتَكْفُرُونَ﴾ (٣٥) هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والاستفهام في قوله: ﴿أَيْدُرُّكُمْ﴾ للتعجب، وهو انتقال من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في

المرسل به، وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابًا وعظامًا المنافي لإقامة الهيكل الإنساني بعد ذلك»^(٢).

وبيّن سبحانه وتعالى أن ذلك التكذيب من أسباب عذابهم يوم القيامة.

فقال تعالى: ﴿وَأَنصَبْ إِلَيْهَا مَاءً مِّنْ السَّمَاءِ﴾ (١١) فِي سُبُورٍ وَجِيمٍ (١٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحْيُومٍ (١٣) لَا يُارِبُ وَلَا يُرِيبُ (١٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (١٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَيْسَتِ الْغَيْمُ (١٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَأْتِ الْمَبْعُوثُونَ (١٧) أَوَآبَاءُونَا الْأَوَّلُونَ (١٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (١٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٥٠].

فقد «كانوا يقيمون على الكفر بالله والإشراك به ومعصيته، ولا ينوون التوبة من ذلك، وكانوا يقولون إنكارًا للبعث: أُنْبِئْ إِذَا مِتْنَا وَصِرْنَا تُرَابًا وَعِظْمًا بالية؟ وهذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له»^(٣).

قال البيضاوي رحمه الله: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَأْتِ الْمَبْعُوثُونَ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقًا وخصوصًا في هذا الوقت، كما دخلت العاطفة في قوله:

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٥٣-٥٢ باختصار.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التفسير الميسر لنخبة من العلماء ١/ ٥٣٥.

﴿الَّذِينَ وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحِينَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد جعل الله الأموال قيامًا للناس، وقسمها بين عباده كما يشاء، قال تعالى: ﴿أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وكان هذا المال مجالًا لطاعة الله وعبادته لأهل الإيمان والدين، ينفقونه في مرضات الله بعدما يكتسبونه مما أحل الله، وأما أهل الشر والفساد؛ فإنهم يكتسبونه من الحرام، أو ينفقونه في الحرام، أو هما معًا. وقد قال تعالى عن إبليس: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأُنَجِّبُ عَلَيْهِمْ حِيلَتَكَ وَرَجِلْتُ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

ومشاركة إبليس للعباد في أموالهم هو ما يأمرهم به من إنفاقها في معاصي الله تعالى، فكل مال عصي الله فيه بإنفاق في حرام، أو اكتساب في حرام، فهو من مشاركات إبليس لعنه الله، والله تعالى لا يحب الفساد. والمال في الأصل هو مال الله، أعطاه للإنسان وديعة؛ لينفقه على نفسه، وعلى مجتمعه في سبيل الخير، وهذا ما صرح به

﴿أَوَ أَبَاؤُنَا أَلَّاؤُنَا﴾ للدلالة على أن ذلك أشد إنكارًا في حقهم لتقدم زمانهم، وللفضل بها حسن العطف على المستكن في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾^(١).

ولذلك جاءت الآيات لتواسي النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهته لعتو قومه من المترفين وكفرهم بدعوته.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَٰذَا وَإِنَّا عَلَىٰ هَٰذَا نَحْمَدُكَ وَلَٰكِنَّا نَحْمَدُكَ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَنَا قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤].

٢. الترف في متاع الحياة الدنيا.
من أبرز مظاهر الترف في الحياة الدنيا ما يلي:

✽ الترف في المال.

الإنسان بطبعه يحب المال حبًا كثيرًا؛ فهو وسيلته للعيش في الحياة الدنيا، ولزينة فيها كثرت أو قلت، قال الله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ الْأَمَْالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقال تعالى: ﴿الْأَمْوَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ﴾
(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٨٠.

القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فإسراف الغني في إنفاق المال وتبذيره بغير الطرق المشروعة هو اعتداء على مجموع الأمة؛ لأن المال عصب الحياة، ومصدر قوة الأمة.

ولقد وصف الله المبذرين بالسفه، وأمر بالحجر على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥]. يعني: لتلا يضيعوها.

وإضاعة المال تكون بإنفاقه في غير وجوهه الشرعية، وكذلك تعريضه للتلف.

ولقد راج التبذير في مجتمعنا في الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة، وهذا ما ينذر بأوخم العواقب.

ومن صور الترف في المال ما ذكره الله تعالى في قصة قارون؛ فهذا الرجل قد أعطاه الله من الخير المال الكثير والرزق العميم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولكنه لم يشكر الله تعالى، وبدل نعمته تعالى كفرًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [٧] وَآتَيْنَا فِي مَآءِ تِلْكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤْبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٤﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْغَائِبُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَارِهُ اللَّهُ بِسُطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [الفصل: ٧٦ - ٨٣].

هذه الآيات قد فصلت حاله، وبيّنت مآله، وكشفت شيئًا من ترفه في المال، فمن ذلك:

✽ أن مفاتيح كنوزه تعبي المجموعة من أقوياء الرجال ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾.

✽ أنه لم يتصح بما أسداه إليه قومه من نصح، بل استعد وتجمل بأعظم ما

والمشارب، والتفنن في إعداد الطعام وتزيينه، والإكثار من الحديث عنه والتفاخر به، والبحث عن أطايبه، والتنادي إلى كل ذلك، والاجتماع عليه والتواصي به، وذلك من مظاهر الترف الذي جعل الجرم الغفير من الناس يعانون بسببه من السمنة وكثير من الأمراض الناشئة عن التَّخمة.

ومعظم أمراض الإنسان ناتجة عما يدخله الإنسان إلى جوفه، وقد نهى الحكماء عن إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: «إن ذلك أساس المرض». «والذي يضبط لك هذا الباب، ويحفظ قانونه على الميزان: أن تأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً، ولا تتكلف الطبيب وتتخذ عادة»^(١).

وينبغي أن يكون القصد من الأكل عند الإنسان أن يكون بلغة إلى الآخرة، ومعيناً على عبادة الله، وتحقيق الموازنة القائلة: لا ضرر ولا ضرار. فالقصد هو الاعتدال دون التَّخمة في الأكل. وهذه قاعدة نافعة، مبعدة للأخذ بها عن الترف، وقد أمرنا بعدم الإسراف في الطعام.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. والمقصود بالإسراف في الطعام «إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره

يمكنه ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ مريداً بذلك إظهار عظمته وكثرة أمواله. فكان مآله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾.

وهنا يجب مراعاة أمر مهم ألا وهو أن ما سبق لا يعني محاربة أو رفض الحياة الهائلة، بل إن الأمر يتعلق بمدى الانغماس في النعيم، فلا يجب إنكار هذا التمتع إذا ما وقع في إطار الاعتدال.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

أما ما كان منه في إطار المبالغة التي تصل إلى حد الإسراف والتبذير فإنه ولا شك مذموم مرفوض.

❁ الترف في الطعام.

لا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُثْرَ نِعَاتِهِ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

لكن البعض يأكل ليس لأجل الحاجة لأكل، بل لأجل التعود، فهو مثلاً تعود على نظام الوجبات الثلاث، والتوسع في المأكول

(١) قمع الحرص بالزهد والقناعة، القرطبي ص ٢٠٥ بتصرف.

في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه في المآكل والمشارب واللباس»^(١).

✽ الترف في المسكن والبناء.

من مظاهر الترف صرف الأموال الضخمة في بناء المنازل والدور، والتباهي في إعدادها وتصاميمها البديعة في الشكل الخارجي والداخلي، مع الحرص على تعدد مواقعها، فبعضها للشقاء والآخر للصيف، وبعضها للمسكن وبعضها للترفة، ومع الحرص على سعتها وكثرة غرفها ووجود ملحقات لها ووفرة وسائل الترفيه فيها، مع الإكثار من الفرش الوثيرة والأواني الفاخرة والمتاع الراقي، مع أن الذي يكفي الإنسان من ذلك الشيء القليل، وأيام العمر تقصر، وتأبى أن تتسع للعبد لكي يتتفع بها ويستخدمها.

وكلامنا هذا لا يعني أن لا نبني بيوتنا بوسائل البناء الحديثة، بل نستفيد مما هو موجود في حدود الاعتدال، مع البعد عن المفاخرة والتظاهر، ومع تذكر أننا راحلون إلى دار آخرة هي خير من هذه، فلا نتمادى في تشييد المباني، بل القصد هو الخير.

والقرآن ذكر لنا صوراً من ترف الأمم المترفة السابقة في المسكن والبناء، من هذه الصور:

الصورة الأولى: قوم (عاد) المترفون: حيث أنكر نبي الله هود عليه السلام عليهم هذا الترف في المساكن بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾ أي: معلماً بناء مشهوراً، ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليه نبينهم عليهم السلام ذلك؛ لأنه تضيع للزمان، وإتعاث للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة»^(٢).

«فبناء قوم عاد للمساكن يبدو من الآيات أنه كان ترفاً، وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثاً، ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»^(٣).

الصورة الثانية: قوم ثمود: فهؤلاء القوم المترفون ذكر القرآن عنهم على لسان نبينهم صالح عليه السلام أنه قال لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَتَرِهِنَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «قال ابن

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١٥٢/٦.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٦٠٩/٥ بتصرف.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٧.

والناس وضع، وإن اغتر به البعض. ومن مظاهر الترف جعل المال في الملابس الراقية، والاكتفاء بلبس الجديد والفاخر، حتى كثرت بسبب ذلك الملابس غير المستخدمة في المنازل، وتكدست مع وجود تنوع في الاستعمال حسب تعدد فصول العام، واختلاف أوقات اليوم، ويبرز ذلك الجانب أكثر لدى النساء.

قال صلى الله عليه وسلم: (إن من شرار أمتي الذين غدوا في النعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدقون بالكلام) (٢). وليس معنى هذا أن نترك زينة الدنيا ونحرمها على أنفسنا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولكن الأساس في هذا النوع من التمتع وغيره من سائر وجوه التمتع أن ينضبط بحد القصد والاعتدال.

ومن صور الترف في الملبس: لبس الحرير للرجال، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (لا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تلبسوا الديباج والحرير، فإنه لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة) (٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٧٧.

وصححه الألباني بمجموع طرقه، في السلسلة الصحيحة ٥١٣/٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس

عباس وغير واحد: «يعني: حاذقين»، وفي رواية عنه: «شرفين أشرفين» وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً، من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها» (١).

فنخلص من هذا إلى أن البناء إذا كان للترف والمفاخرة، وعدم الحاجة فهو المنهي عنه، والمذموم صاحبه، أما إذا كان البناء للحاجة مع الاعتدال، وعدم المفاخرة والتباهي فلا شيء في ذلك، والشرع لم ينه عنه، والله أعلم.

✽ الترف في الملبس.

قال الله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ خَدُوا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

عندما أمر الله تعالى بالزينة في الملبس قصد من ذلك أن تضمن لصاحبها مظهرًا مقبولًا، يستر ما تحته من عورة، ويقي من البرد في فصل الشتاء، ويمنع الحر في فصل الصيف، وأن لا يكون في ذلك الملبس أي نوع من الخيلاء؛ لأن من سلك مسلك المترفين فلا شك أنه أصيب بالمخيلة، وهو مرض عضال، يسقط صاحبه من حيث رفعه، فهو في نفسه رفيع، وفي نظر الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ١٥٦/٦.

٣. الافتخار بالنفر والجاه.

مما درج عليه المترفون في حياتهم افتخارهم بالنفر والجاه، والاستعلاء بهما على الناس، وهذا أمر مطرد بين كل الأمم المترفة، والقرآن ذكر لنا من حال هؤلاء المترفين في افتخارهم بالنفر والجاه عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

«هذا هو رد المترفين على كل دعوة إلى الإيمان بالله، وتلك هي حجتهم عند أنفسهم وعند الناس، إنهم بما يملكون من كثرة في الأموال، وما عندهم من كثرة في الأولاد والرجال لن يكونوا تابعين لغيرهم، ولن يجعلوا لأحد كلمة عندهم، حتى ولو كان رسولاً من رسل الله، يدعوهم إلى الله، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الحق والهدى! إنهم أكثر أموالاً وأولاداً من هذا الرسول، فكيف يقوم فيهم مقام الناصح ذي الرأي والسلطان؟! وكيف يتفضل إنسان على من كان أكثر منه مالاً وولداً؟!»

وفي قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ إشارة إلى أنهم بما لهم من كثرة في المال والأولاد،

لن ينزلوا عن مقام السيادة لأحد، ثم إنهم إذا عذب غيرهم من الفقراء والمستضعفين لن يعذبوا هم؛ فإن الله ما أعطاهم هذا الوفر في المال والكثرة في الأولاد إلا لأنهم أهل للكرامة، وموضع للفضل عنده، وكما كانوا في الدنيا في هذا المقام بين الناس، فهم في الآخرة -إن كانت هناك عندهم آخرة- في هذا الموضع أيضاً، حيث يعذب الفقراء والمستضعفون، أما هم فلن يعذبوا، بل ينزلوا منازل الإكرام والإعزاز؛ ذلك ظنهم بأنفسهم»^(١).

والمتمعن في الآية يستطيع أن يستنبط السبب الرئيس للتكذيب من قبل المترفين لأنبيائهم، ألا وهو خوفهم من زوال النعم والشهوات التي نعموا بها، من قبيل كثرة الأموال والأولاد، واستعلاؤهم بما آتاهم الله من فضله ونعمائه، حيث اعتقدوا أن الفصيل في المفاضلة بين الناس هو الثروة وكثرة النسل من الذكور.

وقد ذكر لنا القرآن مثلاً عملياً من تكبر المترفين بنفرهم، واعتزازهم بأولادهم في قصة صاحب الجنتين، حيث قال: ﴿وَأَصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْعًا ٢٣﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانَتِ أَكْلُهَا وَلَمْ نَقْطِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا

والزينة، باب تحريم الشرب في آية الذهب وخاتم الذهب والحبر على الرجل، ١٦٣٧/٣، رقم ٢٠٦٧، عن البراء بن عازب.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨٢٩/١١-٨٣٠٩ بتصرف يسير.

عند السماء مكان ملحوظ» (١).

والقرآن الكريم لم يترك هذا الاعتقاد عند المترفين دون ردّ عليهم وبيان لخطئهم، بل بين لهم موازين القيم، وأنها مرتبطة بالإيمان والعمل الصالح، وليس بكثرة النفر والأولاد، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧].

وقد بين الله تعالى أن التوسعة في النعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، بخلاف ما يعتقدونه، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُمَجِّبَكِ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وكما ذكر القرآن مثالا عن افتخار المترفين بالنفر فإنه ذكر لنا مثالا على الافتخار بالجاه يتجلى في موقف قريش من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على

خِلاَئِهِمَا نَهْرًا ﴿٣٢﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٣﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٤﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٥﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

فصاحب الجنتين «تمتلى نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، ويتنفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبعد أبداً، أنكر قيام الساعة أصلاً، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنباه ملحوظاً في الآخرة! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٤﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٥﴾

إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملاء الأعلى! فما داموا يستطيعون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

أخلاق المترفين وعاقبتهم

تحدث القرآن الكريم عن المترفين وأخلاقهم وعاقبتهم، وهو ما نتناوله فيما يأتي:

من أخلاق المترفين وسلوكهم:

أولاً: من أخلاق المترفين:

١. الكبر.

المتأمل في نصوص القرآن الكريم يجد أن الله تعالى ذمّ الترف والمترفين، وذكر للمترفين أخلاقاً عرفوا بها في القرآن الكريم، ومن هذه الأخلاق الكبر، وهو بطل الحق، وغمط الناس (٣)(٤).

ونجد الكبر ورفض الحق واضحاً جلياً في مقابلة الملأ المترفين لدعوة رسلهم وأنبيائهم.

فمنذ عهد نوح عليه السلام نجد هؤلاء الملأ المترفين المستكبرين يقفون في وجه الدعوة، مستقليّن شأن المتبعين لها من الفقراء الذين لا مال لهم ولا جاه، بل ويطلبون أن يطرد هؤلاء الأراذل في رأيهم؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

(٣) بطل الحق: أي دفعه وأنكره وترفع عن قبوله.

غمط الناس: احتقارهم والتهاون بحقوقهم.

انظر: فيض القدير، المناوي ٦٢ / ٥.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، ٩٣ / ١، رقم ٩١ عن عبد الله بن مسعود.

رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين! يعنون: مكة والطائف» (١)، «فهم يرون أنفسهم أحق بالرسالة لعظم جاههم، وهذا الجاه النابع عن المادة مرد، ويزول بزوال صاحبه، أما الجاه النابع عن الروح - وهو ما يضطر الإنسان إليه - فإنه منج، وباق ولو توفي صاحبه» (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٢٥ / ٧

بتصرف يسير.

(٢) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص

١٨ بتصرف.

في الدنيا - وإن كانت على حساب الشرع - على الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

قال الطبري: «اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا وصدوا عن سبيله»^(٣). وهذه الآية تنعي على القرى المهلكة عدم وجود جماعة أولي «عقل ورأي وصلاح يهونهم عن الفساد في الأرض باتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحولون بينهم وبين الفساد»^(٤).

فهؤلاء المترفون «صَبَّ عليهم النعمة صَبًّا، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات»^(٥)، حتى فجأهم العذاب ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^(٦).

وهذا يوحي بأن المرء متى تجرّد للحق فإنه لا يملك إلا اتباع الكتاب والسنة، ما لم يصب بأفة الترف التي تقطعه عن هذا الاتباع المحمود، وتجعله يركن إلى الشهوات ويألف التمرّد والعصيان، ومن ثم تخرجه

مَا زَرَنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا زَرَنَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُمُ الْبَأْسَ وَمَا زَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

فانظر إلى هؤلاء المترفين للتعرف على كبرهم ﴿مَا زَرَنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا زَرَنَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُمُ الْبَأْسَ﴾ «فهم يسمون الفقراء من الناس أراذل كما ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان»^(١).

فزينة الحياة الدنيا ومتاعها، أخذت بعقول هؤلاء، فقادهم الترف فيها إلى الكبر، وهذا تجده في القرآن عاماً في جميع الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٢) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٥].

ف «الترف يفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصير على الباطل، ولا تتفتح للنور»^(٣).

٢. الحرص على الشهوات والمتع. من أخلاق المترفين التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، الحرص على الشهوات والمتع والزينة.

فأهل الترف يؤثرون الشهوات والمتع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٢.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩١٠ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٢٩.

(٤) تفسير المراغي ١٢/ ٩٧.

(٥) البحر المحیط، أبو حيان الأندلسي ٧/ ٢٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦١.

عن حدِّ الاعتدال إلى حدِّ الإسراف والظلم للآخرين.

وبذلك يظهر شؤم الترف وأنه «هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، ويظهر ذلك أول ما يظهر في السادة والرؤساء، ومنهم ينتقل إلى العامة والدهماء فيكون ذلك سبباً في الهلاك بالاستتصال، أو في فقد العزة والاستقلال، وتلك هي سنة الله في خلقه، كما قال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ فَهُوَ يَأْكُلُ عَلَيْهِمْ ظُهُورَهُمُ الظُّلُمَاتِ﴾ [الإسراء: ١٦]»^(١).

ثانياً: من سلوك المترفين:

الترف آفة مفسدة ومتى استوطنت كياناً نخوته ونشرت فيه شتى العلل والأوبئة، وأظهرت عليه الكثير من السلوكيات السيئة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى شيء من سلوك المترفين:

١. التمرد على أحكام الشرع.

من النماذج القرآنية التي يتجلى فيها سلوك التمرد على الشرع وتعاليم السماء عند المترفين هو ما قصه الله علينا في شأن قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿فَرَأَيْنَاهُمْ مِن بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةُ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ بِأَكُلِ مِنَّا تَأْكُلُونَ مِنَّهُ وَغَشْرِبٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

ففي هذه الآيات يظهر سلوك التمرد عند الملأ المترف^(٢)، وكيف أنهم استقبلوا دعوة نبيهم لا بالطاعة والإذعان، ولكن بالرفض والإنكار والتكذيب.

ويقص علينا القرآن في موضع آخر كيف أنهم طلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٣٢﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤].

قال ابن كثير: «اقترحوا عليه آية يأتيهم بها؛ ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه - وقد اجتمع ملؤهم - أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم - ناقة عشراء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح عليه السلام العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليصدقنه وليتبعنه، فأنعموا بذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله تعالى أن يجيبهم

(٢) الأظهر أن المراد بهم: قوم ثمود؛ لأنهم من أهلכו بالصاعقة، كما جاء في خاتمة الآيات. انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/٤٩.

(١) المصدر السابق ١٢ / ١٥٨.

ولكن هكذا الترف «يغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب فتغدو قاسية عاصية متمردة، والعياذ بالله»^(٥).

٢. الجزع والفرع عند المصيبة.

قد ظهر في العنصر السابق كيف أن التمرد هو مسلك أهل الترف، والمرء قد يخال أن المترفين لفرط تمردهم أقوياء، وأنهم لعتوّ عصيانهم أشداء، ولكن على العكس تماماً فهم خوراون جنباء لا ثبات لهم إذا دهمتهم مصيبة، ولا صبر لهم إن نزل بساحتهم بلاء. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ^(١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(١٣) قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ^(١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ

[الأنبياء: ١١ - ١٥].

وفي هذه الآيات يظهر مدى شدة فرع المترفين والذعر الذي يملأ نفوسهم إذا حلت بهم الكوارث وكيف أنهم يولون هارين، ويظهر اشتداد فرعهم عند حلول البأس من خلال أمور:

التعبير بـ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا﴾ والإحساس هو: الإدراك بالحس فيكون برؤية ما يزعجهم

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٧ بتصرف.

إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم»^(١).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل دفعهم ترفهم إلى مزيد من التمرد، فقد قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُزْ شَرِبٌ يَوْمَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

يعني: «ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم»^(٢) ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَسْوَاءَ﴾ «بعقر أو غيره فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال فلم يؤمنوا واستمروا على طغيانهم»^(٣)، وفي النهاية قاموا بعقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾^(١٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

[الشعراء: ١٥٧]

- [١٥٨].

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على شدة عتوّهم وتمردهم، فأية الناقة آية عظيمة لا يملك الإنسان أمامها إلا الإيمان والتصديق، ولا غرو فقد وصفها الله بقوله: ﴿وَأَيْنَأْنَا نَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

«إشارة إلى أنها كانت آية واضحة، تعيش في الناس، وتتمشى بينهم، يمرون بها مصبحين وممسين»^(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ١٥٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٥٩٦.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨ / ٥٠٩.

أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح^(١). فإذا كانوا يفرون هارين لمجرد رؤية العذاب ومشاهدة بواده، فهذا لا شك يكشف عن شدة فزعهم.

التعبير بـ ﴿يَرْكُضُونَ﴾ والركض هو: سرعة سير الفرس، وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير الناس على وجه الاستعارة تشبيهاً لسرعة سيرهم بركض الأفراس^(٢). ففرارهم بهذه السرعة يدل حتمًا على الفزع الكبير الذي يملكهم ويسكن نفوسهم عند نزول المصائب.

التعبير بـ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدًا﴾ أي: ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً^(٣)، فاستمرار هذه المقالة معهم حتى إهلاكهم يدل على اشتداد جزعهم.

ومما يدل على جزعهم أيضًا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

ومعنى: ﴿يَجْتَرُونَ﴾ يصرخون، وهو كناية عن شدة ألم العذاب بحيث لا يستطيعون صبراً عليه، فيصدر منهم صراخ

التأوه والويل والشبور^(٤). وهذا يدل على غاية الضعف والخور؛ فالإنسان لا يصرخ إلا إذا كان في محنة لا تقدر أسبابه على دفعها، فيصرخ طلباً لمن ينجده، ويرفع صوته لسمع كل من حوله. وهكذا يظهر سلوك المترفين، وكيف أنهم يكونون أشد ما يكونون خوفاً وفزعاً عند المصائب، وأنهم «لا يصبرون على الابتلاء، بل يخرون صاغرين أمام أي شدة، أو كارثة تصيبهم»^(٥).

ثالثاً: عاقبة المترفين:

«المترفون هم آفة المجتمع في كل أمة، وفي كل جيل؛ إذ فيهم ينشأ الفسق، والمجون، وكل ما من شأنه أن يغذي العواطف الخسيسة»^(٦).

ومتى تركوا في المجتمع دون ردع وضرب على أيديهم «عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها»^(٧).

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨٤ / ١٨.

(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠ / ٥٠٩٠ بتصرف.

(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨٢٩ / ١١.

(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٧.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ١٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٣٥.

فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلّطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحققت الهلاك، وما سلّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك»^(٣).

وخاتمة الآية تظهر بجلاء حجم الدمار الذي يلحق أهل الترف فالله تعالى أكد التدمير بمصدره «المبالغة في العذاب الواقع بهم»^(٤)، ولإظهار شدة الهلاك الواقع على تلك القرية.

وتظهر هذه العقوبة المؤلمة للمترفين في الدنيا أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(٥) ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾^(٦) ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾^(٧) ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنْآكَ ظَالِمِينَ﴾^(٨) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾^(٩) [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وهذه الآية تبين مدى شدة العقاب الذي يحل بالمترفين في الدنيا، ويظهر ذلك من خلال التعبير بالقصم الذي هو «الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده الثام ولا انتفاع، واستعير للاستئصال والإهلاك القوي»^(٥). وفي النهاية تذكر الآيات كيف أنهم

ولذلك توعدهم الله بعقاب أليم كما أنه نوع عقوبتهم، فمنها ما هو دنيوي، وما هو أخروي.

١. العقاب الدنيوي.

ذكر الله صورًا لعقاب المترفين في الدنيا منها:

❖ التدمير والإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وما هنا يخبر الرب تبارك وتعالى أنه إذا أرد إهلاك قرية لظلمهم وفجورهم أمر مترفيهم «بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة»^(١). وحق عليهم بذلك الهلاك والدمار.

وإنما خصّ المترفين بالذكر؛ لأن «العامّة والدماء يقلدونهم فيما يفعلون؛ ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله»^(٢).

وهكذا يجلب الترف الهلاك والدمار ليس على أصحابه فحسب، بل على المجتمع بأسره، وتأمل كيف أن العذاب طال القرية بأكملها وما ذلك إلا «لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٦١.

(٢) تفسير المراغي ١٥ / ٢٦.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠ / ٢٣٤.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٢٥.

ذكروا ظلمهم واستفاقوا بعد فوات الأوان ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١٤ - ١٥].

«والمراد: أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة، وجفّوا كما يجفّ الحصيد، وتخمّدوا كما تخمد النار» ^(١). وهذا لا شك يظهر شدة الأخذ والإهلاك الذي أصابهم وقطع دابرهم.

❖ انقطاع الذكر.

قال الله تعالى عن قوم ثمود: ﴿فَرَأَيْنَاهَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخِرِينَ﴾ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأُفِّرْنَاهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ ﴿٣٤﴾ أَلَيْدُكُمْ أَكْثَرُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظًا إِنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَاخَذْنَاهُمُ الصَّيْغَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١].

«والغشاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا رابط بينها.

وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التي كرمهم الله بها، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم، فإذا هم غشاء كغشاء السيل، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام. ويزيدهم على هذه المهانة الطرد من رحمة الله، والبعد عن اهتمام الناس ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾ بعدًا في الحياة، وفي الذكرى في عالم الواقع، وفي عالم الضمير ^(٢).

٢. العقاب الأخروي.

إذا كانت عاقبة المترفين في الدنيا هي الإهلاك والتدمير، وانقطاع الذكر، فما لهم في الآخرة أعظم وأشد، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَجَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥].

وهذه صورة عvisية لعذاب المترفين في الآخرة، إنهم ﴿فِي سُمُومٍ﴾ والسّموم: الرّيح الحارّة التي تدخل في مسامّ البدن، والمراد هنا: حرّ النّار ولفحها، ﴿وَجَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارّ قد انتهى حرّه، إذا أحرقت النّار أكبادهم

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٨.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢ / ١٢٤.

ترك أمر الله، فشغلهم ترفهم عن الاعتبار والتعبد^(٦).

ونلاحظ هنا أن عذابهم جاء مطابقاً لحالهم، فالله أفاض عليهم بالنعمة التي كان من حقها «أن تفتح لهم طريقاً إلى الله، فيحمدوا له ويشكروه، ولكنهم بطروا، وأشروا واستكبروا في الأرض، وعتوا عن أمر ربهم، وصدّوا عن سبيله»^(٧). فأبدلهم الله به السموم والحميم والظل الذي لا هو بارد ولا كريم.

ومن الآيات الدالة على عقوبة المترفين في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَذَرَىٰ وَٱلْمُكْذِبِينَ أَزْلَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهٗ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرَىٰ وَٱلْمُكْذِبِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَهْلَهٗ قَلِيلاً﴾ أي: رويداً^(٨). وقد جاء وصفهم بـ ﴿أَزْلَىٰ النَّعْمَةِ﴾ «توبيخاً لهم بأنهم كذبوا لغرورهم ويطرهم بسعة حالهم»^(٩).

وقد ذكرت الآيات بعد ذلك من ألوان

وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميماً حارّاً في نهاية الحرارة والغليان^(١).

ونلاحظ هنا أنه ذكر السموم والحميم دون النار، وذلك «إشارة بالأدنى إلى الأعلى، فإن هواءهم إذا كان سموماً، وماءهم الذي يستغيثون به حميماً، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها، فما ظنك بنارهم، فكأنه قال: إن أبرد الأشياء لديهم أحرّها، فما بالك بحالهم مع أحرّها؟!»^(٢).

وهم من شدة ما يلقونه من هذا السموم وذاك الحميم يفزعوا إلى الظلّ كما يفعل أهل الدنيا؛ ولكنهم يجدونه ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ يَّخْتُمُونَ﴾ أي: من دخان جهنّم أسود شديد السواد^(٣). ووصف الله هذا الظل بأنه ﴿لَّا بَارِدٌ﴾ أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: ولا كريم المنظر^(٤). والمقصود «أن هناك الهمّ والغمّ والحزن والشرّ الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده»^(٥).

أما الذي أنزلهم هذا المنزل المشثوم، وألقى بهم في هذا البلاء العظيم، فهو ترفهم في الحياة الدنيا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي: متنعمين في

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٦٩.

(٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٢٢٥.

(٨) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤ / ٧١٩.

(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.

(٢) تفسير المراغي ٢٧ / ١٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٣٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٥٣٨.

الأنكال القيود، والجحيم وهو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستغلال والتبرد، والطعام ذو الغصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد»^(٦).

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الإنفاق، المال

العذاب المعدّ للمترفين في الآخرة أمورًا أربعة:

أولاً: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ أي: «إن لدينا لهؤلاء المكذبين بآياتنا قيودًا ثقيلة توضع في أرجلهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا إذلاًّ لهم»^(١).

قال الشعبي: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم^(٢).

ثانياً: ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي السعير المضطربة.

ثالثاً: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج^(٣).

رابعاً: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً مفظعاً^(٤).

ومما يكشف عن شدة العذاب المعدّ لهم أن أجناس العذاب الأربعة جاءت منكراً وذلك «لقصْد تعظيمها وتهويلها»^(٥).

ويكفي أن نستحضر أنّ عذابهم في الآخرة أيضاً جاء مضاداً لأصول النعمة التي خوّلوها، فبطروا بها «فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة؛ لأن

(١) تفسير المراغي ٢٩ / ١١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٤٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٩٣.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٧١.

(٦) المصدر السابق ٢٩ / ٢٧١.